

دور الأساطير في تدعيم الحكم "بلاد الرافدين ومصر القديمين أنموذجا"

بقلم الأستاذ: عبد العزيز لحرش
أستاذ محاضر قسم التاريخ
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
جامعة قسنطينة 2. عبد الحميد مهري

Résumé

ملخص:

A travers les
exemples cites, cet articles
vises montrer comment les
souverains dans
l'ancienne Mésopotamie
et l'Egypte sont toujours
retourné envers les mythes
pour accéder au pouvoir,
et le rendre légitimes
auprès de leurs citoyens.

يحاول هذا من البحث، تقديم أمثلة
من أعماق التاريخ تظهر مدى دور الأسطورة
في تدعيم الحاكم في اعتلاء سدة الحكم، وكيف
يبرر مشروعية ذلك باللجوء إلى نسج أسطورة
له سندا، ثم يعزوها إلى قوى إلهية كانت وراء
اختياره من بين غيره، بخاصة إذا كان مغتصبا
للحكم. والأمثلة مستقاة من بلاد الرافدين
ومصر- الفرعونية. القصد من هذا البحث
معرفة القارئ، وإدراكه أن اللجوء إلى هذا
الأسلوب وغيره لم يتغير كثيرا عبر التاريخ
اللاحق.

دور الأساطير في تدعيم الحكم "بلاد الرافدينأ. عبد العزيز لحريش

مقدمة:

الأسطورة كانت، ولا تزال، أداة من الأدوات والوسائل المختلفة المكونة والمؤسسة والمدعمة للدين في القديم، قد أدت دورا فعالا في تثبيت أركان الحكم، وهي من الأمارات البارزة والجوهرية في تاريخ الشعوب القديمة العامة، وشعوب منطقتي بلاد وادي الرافدين، وبلاد النيل خاصة لأن الطابع المميز الذي سارت تحت ظله شعوب هاتين المنطقتين، تمثل من قوة التدين والعقيدة ومدى تغلغلها في نفوس أصحابها، وهي قوة لا توازيها قوة أخرى في التأثير على نشاط الفرد منها العقلية والسلوكية وغيرهما أو بعبارة برستيد⁽¹⁾ "لا توجد قوة في حياة الإنسان القديم يكون تأثيرها متغلغلا في جميع نشاطه كما تفعل قوة موهبة الدين".

لقد كانت الأساطير التي نسجها خيالهم، إحدى الأدوات التي وظفت في تدعيم ركائز حكم الأسر المتعددة التي تعاقبت على تاريخ هاتين المنطقتين، أما بوضع أسطورة لتدعيم شرعية الحاكم وأسرته أو لتقديم المبررات اللازمة لمغتصب الحكم ففي كلتا الحالتين كان اللجوء إلى العقيدة وأداتها، الأسطورة من الأعمال المعتادة آنذاك.

وهذه المقالة تحاول أن تبحث في دور الأسطورة من هذه الزاوية، أي صلة الأسطورة بالحكم ومدى تأثيرها في تثبيته أو القضاء عليه. لكن قبل هذا يمكن أن تعرف الأسطورة وكيف كان يتقبلها الناس دون الاستفسار عن صدقها أو زيفها، لتتبع ذلك بنماذج مستقاة من تاريخ هاتين المنطقتين، لتبيان الدور الفعال الذي كان مناطا بالأسطورة في هذا الشأن.

تعريف الأسطورة⁽²⁾:

لا نرمي من وراء هذا أن نقدم تعريفا شاملا مانعا للأسطورة، لأن هذا مجال أثار نقاشا واختلافا متباينا بين علماء الأساطير، بقدر ما نحاول تقديم فكرة عن محتوى وقصد الأسطورة التي تكون محل المعالجة والدراسة، أو كيف كان يفكر الإنسان القديم بمعنى آخر ما هو المنهج المعرفي الذي اتبعه في وصفه لتلك الأساطير؟ بداية، كلمة "أسطورة" لما نسمعها أو نقرأها يتبادر إلى ذهننا مباشرة معنى نقصده بذاته، دون البحث في خلفياته، وهو الذي يعبر عن قصة أو حكاية من الحكايات التي يغلب أو يطغى عليها طابع الخيال أكثر من الواقع، كما أن هذه القصة تكون مجهولة المؤلف - ماعدا بعض الملاحم والأساطير التي لها مؤلفين - فأساطير الشرق القديم فلا احد يعرف مؤلفيها والتي تم العثور عليها مسجلة في المخلفات الأثرية التي تمت إزالة الأتربة عنها. وقد كانت تحكي وتحفظ من قبل رجال معينين لتقدم في أوقات ومناسبات معلومة، وكثيرا ما كان يتحكم "الراوي" بشيء من التعسف في رواياته بالإضافة والإطالة والتشويق... الخ.

لا جدال في أن الأسطورة هي نتاج فكري، بغض النظر عن نضجه وتطوره أو بدائيته، إذ اعتمد الإنسان على خياله في نسج قصة وحبكها تعالج موضوعا قد شغل بال الإنسان، وأن هذا الفكر الذي ترك لنا تلك الأساطير كان يسعى إلى تقديم تفسيرات عن بعض السلوكيات والتصرفات التي قام بها الحكام ورجال الحرب طوال التاريخ القديم، وكلما ابتعدت القصة أو الحادثة عن بدايتها بدأ يلفها الخيال. وهذا ما طبع الفكر الشرقي بأنه "يبدو ملفوفا بالخيال ونعتبره نحن مشوبا بالوهم والخرافة"⁽³⁾ والصبغة الخرافية جاءت نتيجة معالجة هذه الأساطير لقضايا ومواضيع بعيدة عن لمس الفرد، فهي تتألف "غالبا من قصص الأرباب والأبطال من حيث مولدهم وموتهم،

دور الأساطير في تدعيم الحكم "بلاد الرافدينأ. عبد العزيز لحرش
وحبهم وبغضهم، وأحقادهم ومؤامراتهم، وانتصاراتهم وهزائمهم، وأعمال الخلق
والتدمير .. ونظام الكون وشكل الإنسان وإقامة الحضارة"⁽⁴⁾ أي كل ما هو في
الوجود.

فكان وراء كل أسطورة سبب، وأمامها هدف تريد بلوغه لهذا فهي لا تخلو
من دين ومن تاريخ ومن فلسفة ومن فكر، فهي تحتوي على هذه العناصر المعرفية
مجتمعة، وما على الباحث إلا أن يُشغل عقله لكي يقف على القصد من وراء هذه
الأساطير.

وكل الأساطير يغلب عليها الطابع الخرافي الذي يدور حول الآلهة والجن
وعالم ما بعد الطبيعة، على الرغم من اختلاف العلماء في دراسة الأساطير وتشعبهم إلى
مذاهب شتى حول نشأة الأساطير ووظائفها التي تؤديها داخل المجتمع، باعتبارها
عاكسة لجانب هام من الأفكار السائدة والمثاليات التي يؤمن بها أو التي يريد تحقيقها.
لأن الأسطورة من جملة مظاهر استنباطها أنها "تستنبط من العادات والشعائر لا
بالعكس... فالتقليد أسبق في الزمن من الأسطورة"⁽⁵⁾. لهذا استخدمت أو فهمت
كلمة الأسطورة باعتبارها تمثل القطب المعاكس لكلمة "الواقع" أو "الحقيقة"⁽⁶⁾
كأن الأسطورة لا فضاء يحيط بها أو يحويها ولا زمن يحدها... فكيف لنا أن نفهم هذه
الأساطير وقبولها على أنها تمثل نتاجا فكريا له قيمته المعرفية ومساهمته التاريخية؟

يبدو أن أحسن طريقة أو منهجية يمكن اتباعها لفهم حقيقة وظيفة الأسطورة
عند شعوب الحضارات القديمة في الشرق الأدنى القديم هي الولوج داخل طريقة
تفكير هذا الإنسان، وكيف كان ينظر إلى تجاربه وخبراته، فهنا نقف على فكر ملفوف
كله بالخيال، ويحكم عليه بأنه فكر خرافي مملوء بالوهم، غاب الموضوعي والمعقول منه.

هذا الحكم أو التقييم خاص بنا، بينما هو عند الإنسان القديم لا يخرج عن فكر تأملي، هذا النوع الذي أصبح غائبا عندنا، لأن العلم حل محله، ما عدا في دراسة الإنسان والبحث عن طبيعته وقيمه ومصيره، فكل هذه القضايا تعالجها من زاوية تأملية، أما الجوانب الأخرى الناتجة عن تجاربنا وخبراتنا نعمل على تفسيرها بواسطة حكم العلم وما يتطلبه من شروط وخطوات منهجية للوصول إلى الحقيقة وهي الجوانب التي يفتقر إليها الإنسان القديم.

بالإمكان إيراد كثير من الأمثلة التي تبين تحكم التفكير التأملي عند الإنسان القديم، لكن هنا نورد مثالا، يكون كافيا، كلنا نعرف أن شروق وغروب الشمس مرتبطان بدوران الأرض حول نفسها ومن ثم حول الشمس. فهذه النظرة الشاملة والكلية هي التي يفتقر إليها الإنسان القديم⁽⁷⁾، فبالنسبة إليه لا يبحث في كيفية حدوث الأشياء، لكن في من أحدث الشيء فوراء كل حادثة ما فاعل.

ولم يكن يدور بخلده غير هذا. وهو مثل الإنسان "البدائي" الذي يختلف عنا لكونه ذا عقل واقع في أحبولة الانفعالات أو بعبارة الأنثروبولوجي «فرانس بواس Boas. F⁽⁸⁾» " إن الرجل البدائي عنده العقل نفسه الذي عندنا، فيما عدا أنه عقل واقع في أحبولة الانفعالات ... أن الحضارة لا تحسن العقل ولكنها تقلل من الترابط الانفعالي بالأفكار، وبذلك تعيننا على أن نفكر بوضوح أكثر فإذا أردنا أن نقنع ونصل إلى الإفهام فإنه يتعين علينا أن نحاول التخلص من الانفعال عندما يكون لا دخل له بالموضوع" وهو الطابع الذي يغلب على الإنسان القديم، أي عدم الفصل بين الموضوعي والذاتي، وفكره التأملي يخلو كثيرا من تناسق الأفكار وتنظيمها تنظيما منطقيا، كما هو الشأن بالنسبة للفكر المنطقي الذي يتمتع به الإنسان المعاصر الذي يفرق في عمله الذهني أو التجريبي بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي، فالفكر المنطقي

دور الأساطير في تدعيم الحكم "بلاد الرافدينأ. عبد العزيز بن لحرش

هو النظر للأحداث والأفعال في كليتها غير مجزأة عما يحيط بها، بينما عند الإنسان القديم ، أو "البداي" فكل حدث ينظر إليه نظرة خاصة ومجزأة وذاتية. وقلما بحث كيفية حدوث الأشياء، مثل: نزول المطر، حدوث الجفاف، شروق الشمس، فكل هذه المظاهر يوجد من أحداثها.

زيادة على هذا فإننا نرى في التفكير المنطقي عند الإنسان المعاصر فيه نوع من الشطط في فهم الأشياء وتقييمها لأن "التفكير المتأنس هو التفكير المعقول وحسب، والإنسان المنطقي يكون دائماً مقسطاً وتأخذه العزلة بالقسطاس فهو لذلك عديم الإنسانية، ومن ثم فهو خاطئ في حين أن الإنسان المعقول يرتاب في أنه ربما يكون خاطئاً ولذلك فهو دائماً على صواب"⁽⁹⁾. إذن فلا نغتر كثيراً باعتقاد الأسلوب المنطقي، ونحكم بواسطته على الأشياء وتقييمها.

إذا أخذنا بعين الاعتبار هذه القضية قضية كيف كان يفكر إنسان العالم القديم، لأمكننا الاقتراب، إلى حد ما، من فهم الجوانب الفكرية والتأملية التي سطرها وضممتها تلك الأساطير المختلفة التي أراد بها بلوغ أهداف وتقديم تفسيرات لمجمل العالم المحيط به، على الرغم من انعدام وضوح النص النظري والطابع الغالب على عموميتها، مع هذا، "إنها مجسدة محسوسة، وأن تدع أن صدقها لا يمكن الطعن فيه، وهي تطالب المؤمن بالاعتراف بها، وإزاء المتشكك لا تحاول تبرير نفسها"⁽¹⁰⁾ وهو المبدأ العام للأسطورة.

وفي الأخير الأسطورة ليست في نهايتها تفسيرية أو تبريرية فهدفها ليس إشباع رغبات الفضوليين، لكن من أجل إثبات الإيمان بالعقيدة المتبعة، والعمل على توسيعها في نفوس أفراد المجتمع.

الحكم والدين في الشرق الأدنى القديم:

لقد اعتبر "أهل الشرق الأدنى القديم المملوكية، بأنها أساس الحضارة، وفي نظرهم لا يستطيع العيش دون ملك إلا المتوحشون فالأمن، والسلم، والعدل، لا يمكن لها أن تسود إذا لم تكن هناك حكومة تصونها".

بهذه الفكرة يستهل (ه. فرانكفورت) دراسته القيمة حول المملوكية والألوهية⁽¹¹⁾، في كل من بلاد الرافدين ومصر الفرعونية، وهذا يسمح لنا باستخراج فكرتين جوهريتين حول طبيعة وضرورة الحكم ومطالبه.

الأولى: أن "الحكم" شيء أساسي لا مفر منه عند هذه المجتمعات القديمة، وهي لا تتصور نفسها خالية أو تفتقر إليه، بل انعدام وجوده يعتبر سمة من سمات المجتمع المتوحش الذي يكون خاليا من كل ضابط - في نظرهم - يتحكم في تسيير العلاقات وضبطها بين أفراد المجتمع، وهذا بغض النظر عن النظرة التقييمية التي نعطيها لمستوى ودرجة تطور هذا الحكم. لأن المجتمعات المتوحشة هي الأخرى لديها أنظمة وضوابط تتماشى وتطورهم الحضاري⁽¹²⁾.

الثانية: إن الحفاظ على الأمن والسلم والعدل، وغيرها من صلاحية الحكومة لا للأفراد، لأن الحكومة وحدها فقط، بإلها من قوة السلطة تتمكن من صيانة هذه الأخلاقيات، وهذا الاعتقاد يكون قد ساد عند أهل الشرق بعد أن نضجت حضارتهم في مختلف مناحي ومجالات الحياة وصارت الحكومة مكونة من هيئة من الأفراد أو مجسدة في مؤسسة ظاهرة للعيان منفصلة عن المجتمع، ومهامها تنظيم أحوال الناس تحت إشراف هيئة وسلطة معينة.

لقد تصور سكان الشرق القديم، خاصة بلاد الرافدين أن المملوكية أو نظام الحكم كان في السماء ثم نزل على الأرض، وهذا كشيء أزلي، كأن الإنسان لم يكن له

دور الأساطير في تدعيم الحكم "بلاد الرافدينأ. عبد العزيز بن لحرش

دخل في وضعه وإيجاده، بمعنى آخر لم تكن الملوكية تمثل لهم ظاهرة اجتماعية من إنتاج المجتمع، بل كانت في السماء في حوزة الآلهة التي أنزلتها على الأرض على فترتين، الأولى قبل حادثة الطوفان والثانية بعد الطوفان.

وهذا بطبيعة الحال تفسره نظرتهم للعالم آنذاك حيث "... تقبلوا كحقيقة بديهية بأن الظواهر الحضارية والأحداث التاريخية تأتي كاملة الصنع (كاملة النمو ... كاملة التفتح) على المسرح العالمي لأنها خططت وصنعت من قبل الآلهة الجبارة"⁽¹³⁾، وهي نظرة تسمح لنا بفهم أكثر للكيفية التي عاجلوا بها عوامل ارتقاء الملك سدة العرش أو تنحيته منه.

إذا ما أمعنا النظر ودققنا البحث نجد أن نشأة أنظمة الحكم والإدارة في كل من مصر الفرعونية وبلاد الرافدين، على أنها كانت ضرورة فرضتها ظروف الحياة على ضفاف تلك الأودية، وجعلتها ظاهرة اجتماعية لصيقة بفكر تلك المجتمعات ومعتقداتها، وليس كما أدركتها عقليتهم.

وعلى الرغم من تشابه ظروف النشأة وعواملها فإن كل منطقة سارت في اتجاه مخالف عن الأخرى في نظرتها لطبيعة الملك فهو عند الفراعنة الملك هو الإله في آن واحد، بينما عند الرافدين فما هو إلا مجرد ملك بشري، لكن الآلهة أو إله المدينة هو الذي عينه ليسر شؤون ممتلكاته على الأرض. وترتب عن هذا أن "صورة البطل الذي يخطو إلى عالم الآلهة لم تعرف في الأساطير المصرية"⁽¹⁴⁾ على حين تعج أساطير بلاد الرافدين بهذا البطل، ومن أشهرهم جلجامش.⁽¹⁵⁾

النموذج المصري:

لقد تمتع الملك الإله في مصر مع مرور الزمن بتقديس عظيم الذي كان له أثره الفعال في توطيد نظام الملكية وتثبيت دعائمها، حيث صار من الواجبات المهمة

دراسات.....العدد الثاني فيفري 2015.....Dirassat

للحكومة هي تنظيم عبادة الملك باعتباره آلهة وإقامة شعائر العبادة الجنزية له بعد موته، بينما خلال نظام الحكم في بلاد الرافدين من ظاهرة تقديس وعبادة الملك، ما عدا تلك الإشارات التي حاول تأويلها بعض المؤرخين، بالاعتماد على بعض الإشارات والرسوم التي نسبت للملك الأكدي نرام سين، بأنه في عهده عرف سكان بلاد الرافدين تقديس الملك⁽¹⁶⁾.

زيادة على هذا الاختلاف ما نجده عند المصريين فيما يعتقدون بأنهم ينحدرون من أصل نبات أو حيوان أو غيرهما⁽¹⁷⁾. مما أثر تأثيراً كبيراً على عقائد وأساطير سكان مصر، وعندما أصبحت مصر دولة موحدة يحكمها حاكم واحد هو الملك، كان أولئك الذين لا يجدون من ورائهم القوة الكافية لتولي العرش أو الأحقية الشرعية التي تؤهلهم للحكم يلجئون إلى هذه الناحية ليجدوا فيها سنداً وملاذاً ودعماً، وحدث هذا مراراً في تاريخ مصر القديمة.

المثال لذلك الأول هو ما أقدم عليه ملوك الأسرة الخامسة (2600 ق.م - 2400 ق.م) خلال عصر الدولة القديمة في نسب أصلهم على أنهم أبناء للإله "رع" إله الشمس، وأن الآلهة هي اللاتي ساعدن في ولادتهم وهيان لهم التيجان. وكتبت هذه القصة لهدف واحد هو تبرير اعتلاء ملوك هذه الأسرة على عرش مصر، إذ كانوا أصلاً من كبار عبادة الشمس، وليس لهم من حق شرعي فيه. لأن قبل هذا فإن العبادة كانت لإله حورس الذي كان حاكم مصر كلها، و"بذلك فهو حاكم العالم المسكون وهكذا فقد مثل حورس ثالوثاً يتكون من الملك السماوي والملك في الأرض والصقر"⁽¹⁸⁾. الذي كان في الأصل حاكم مصر مع أخيه "ست" وجاءت أسطورة هليوبوليس⁽¹⁹⁾ لتجعل من حورس الابن البكر للإله أو وزير ابن إله السماء "نوت" والأرض "جب" وبالتالي صار حفيداً لهما وله الأحقية في تولي الحكم خلفاً لأبيه.

دور الأساطير في تدعيم الحكم "بلاد الرافدينأ. عبد العزيز بن لحرش

ونجد تكرار هذه الممارسة مع الملكة (حتشبسوت المتوفية عام 1483 ق.م زعيمة النيبلات) في عهد الدولة الحديثة (1580 ق.م – 1085 ق.م) التي صورت على جدران معبدها الجنزي المعروف باسم معبد الدير البحري في البر الغربي بالأقصر- (طيبة سابقا) في صورتين مولدها الإلهي كيف أن أنها حملت من الإله آمون نفسه، وكيف أنه قد أراد عن قصد أن تتولى ابنته عرش مصر، وقد كان من الطبيعي أن تلجأ هذه الملكة لهذا السلوك باعتبارها امرأة إلى مثل هذه الطريقة لكي تضمن موافقة رعاياها على قبولها ملكة تنتسب للإله آمون اله الإمبراطورية ما دام قد نصبها بنفسه⁽²⁰⁾.

كما اتبع الملك المنحطب الثالث، الأسلوب نفسه بإرجاع نسبه للإله مباشرة حتى يعوض ضعف مركزه وعدم نقاء دمه الذي لم يكن مصرياً خالصاً مقدساً كدم الملوك الشرعيين من الأب والأم، إذ أن أمه كانت أميرة ميثانية، إذ كان التقليد المتبع عند المصريين هو أن وراثة العرش يعود للنساء لأنهن أصحاب الحق في الملكية وينتقل الملك عن طريق الزواج بالوراثة للعرش.

وهذا التوجه نحو الدين وطلب العون منه واستخدامه وسيلة من وسائل إقناع الشعب بقبول حكم شخص معين، كان لابد أن تعقبه نتيجة حتمية وهي مكافأة كهنة الإله الذين هيئوا هذه الأساطير الدينية وتكفلوا بنقشها على جدران المعابد يراها الناس ويؤمنوا بأحقية هذا الملك في الحكم أو عدم شرعيته في الولاية، فدور كهنة مصر كان له شأن عظيم. فمن كان الكهنة بجانيه لا يخيب⁽²¹⁾ ولا يضيع حقه.

إلى حد الآن يكون اقتصرنا على بلاد النيل حيث توجد الكثير من الأمثلة على شكل أساطير ونصوص دينية لها صلة بطبيعة الحكم والحكام والكيفية التي يتولون الحكم بواسطتها.

النموذج الرافدي:

أما إذا توجهنا تجاه مناطق شرق النيل، أين ظهرت ثاني حضارة عالمية آنذاك في بلاد الرافدين، فلا نجد اختلافا كبيرا بين الأساليب التي اتبعتها الحكام في إسباغ الطابع الدين في إعطاء الأحقية والشرعية لحكم الملوك، باستثناء فكرة أو عقيدة أن الملك ابن الإله المعبود، الغائبة في العقيدة والممارسة في بلاد الرافدين.

مع العلم أن بلاد الرافدين لم تعرف الوحدة السياسية، إلا بعد فترة طويلة من تاريخها المدون، بالمقارنة مع بلاد النيل الذي نجده مقرونا ببداية المرحلة التاريخية في حدود بداية الألف الثالث قبل الميلاد، بينما كان في بلاد الرافدين في الربع الأخير من هذا الألف الثالث قبل الميلاد على يد أسرة الأكاديين.

وتتميز طابع النظام السياسي والإداري في بلاد الرافدين قبل الوحدة بنظام دولة - المدينة -. هذا الطابع كان له تأثيره في وجود عدد لا بأس به من الآلهة الذين ينسبون إلى مدن كبرى فلكل دولة - أو مدينة -. إله يكلف نيابة عنه ملكا لتولي تسيير شؤون المدينة، وهو الطابع المميز لنظام الحكم في بلاد الرافدين الذي يرى في الملك مجرد إنسان لكن الآلهة وضعت عليه عينها واختارته للنيابة عنها، بحيث لم يكن الاختيار بيد المجتمع، بل كان في يد كهنة المعبد الذين يبررون مواقف الحكم في أعماله من أجل اعتلاء العرش.

ولقد كانت مكانة الملك وفقا للقب الذي يحمله، حيث نجد - تقريبا - ثلاثة ألقاب في أدبيات بلاد الرافدين، هي: "لوجال"⁽²²⁾ الرجل العظيم، الذي كان يطلق على "حاكم مدينة حرة لم تكن تابعة لسلطة مدينة أخرى" بينما لقب "أنسي" فحامله مكانته أقل إذ يوحي بأنه يعمل تحت امرأة "لوجال" أما اللقب الثالث "ملك

دور الأساطير في تدعيم الحكم "بلاد الرافدين".....أ. عبد العزيز لحريش

كيش" (23) "الذي يحمل في طياته ادعاء بالسيطرة على بلاد سومر كلها" (24)، وكانت عملية تولي الحكم وراثية.

إذا كان حكام بلاد الرافدين لم يصلوا إلى مرتبة التأليه، فهذا لم يمنعهم من تقديم مبررات لإعطاء لهم أحقية تولي الحكم، بمساعدة رجال المعبد باعتبار أن المعبد هو نواة الحياة آنذاك.

ومن بين الأمثلة البارزة التي يمكن إيرادها، هي قصة مولد سرجون الأكدي (2371 ق.م - 2316 ق.م) وهي تحريف لاسم "شارو - كين" التي تعين الملك الصادق أو "الملك الشرعي" ويعتقد جل المؤرخين بأنها مصنعة من قبل الملك في الفترة الأولى من حكمه.

ويجب الإشارة هنا، قبل التحدث عن هذه الأسطورة إلى جانب عامل الدين وما يقدمه، كانت هناك عوامل لا يمكن إهمالها في عملية تولي الحكم، أي الجوانب الاقتصادية، والقتالية أو العسكرية فبهذه الأخيرة كانت الغلبة النهائية للحاكم، حيث كانت المدن تسقط بحد السيف. ثم يأتي الدين لمباركة الحاكم. والإله الذي كان يمنح شرعية الحكم وهو اله مدينة نيبور "إنليل" - إله الهواء والرياح والعواصف -.

لقد كانت الظروف التي مكنت سرجون استيلاء على الحكم، غامضة زيادة على غموض أصله من حيث المولد والنشأة. مما دفعه إلى وضع أسطورة جاءت على لسانه، على النحو التالي: (25)

أنا سرجون، الملك العظيم، ملك أكد...

كانت أُمي كاهنة عليا ولم أعرف أبي الذي كان متجولا وكان أعمامي يعيشون في التلال، وأصلي مدينة "أوزافرانو" (الزعفران) على الفرات.

وحملت بي أُمي وضعتني سرا وأخفتني في سلة مقيرة من الحلفاء وغطتها ورمتني في الماء، فلم يغرقني النهر بل حملني إلى "أكّي" ساقّي الماء. فانتشلني «أكّي» بدلوه، ورباني واتخذني ولدا وعيني بستانيا عنده. وبينما كنت أعمل بستانيا أحبّتي الآلهة عشتار فتوليت الملوكية مدة 4.... وحكمت "ذوي الرؤوس السود" وقهرت جبالا كثيرة بفؤوس البرونز وغزوت الأقاليم البحرية واستوليت على دلمون⁽²⁶⁾.

المؤرخون الذين انكبوا على دراسة حياة «سرجون الأكدي»، لم يتمكنوا من معرفة شيئا عن أصله وطفولته، كذلك كيف تدرج في الوظائف حتى وصل إلى سدة السلطة⁽²⁷⁾ بينما الأعمال العسكرية التي قام بها قد سجلت على ألواح مسبارية وعلى قاعدات للتماثيل⁽²⁸⁾ التي تخلد انتصاراته بفضل القوة التي أعطاها إياه الإله "إنليل" حتى أنه تحدّى الملوك أن يقوموا بما قام به، عندما قال "والآن أيا كان الملك الذي يدعي أنه نظير لي فليصل إلى حيث وصلت أنا"⁽²⁹⁾.

والشيء الملفت للانتباه هو تشابه هذه الأسطورة مع قصة مولد سيدنا موسى عليه السلام....! وهذا التشابه لم يتمكن علماء الآثار والمؤرخون من إمطة اللثام عنه⁽³⁰⁾.

إن الشيء المتعارف عليه من خلال النصوص التي تركها لنا معظم حكام مدن بلاد الرافدين - على مر العصور التاريخية أن الحصول على شرعية الحكم لا تكون إلا بإذن من اله الرياح والعواصف "إنليل". وهذا الجانب كان له الأثر الكبير في أن تلعب مدينة "نيبور" دورا لا يستهان به في عملية إرساء قواعد وأسس الوحدة السياسي، فصارت بمثابة مدينة مقدسة، حيث فسر الكتاب القدماء انهيار الإمبراطورية الأكديّة إلى الأعمال التي قام بها حفيد «سرجون» عندما أقدم على إهانة

دور الأساطير في تدعيم الحكم "بلاد الرافدينأ. عبد العزيز لحريش
الأماكن المقدسة لهذه المدينة، ويبدو أنه كان لها نفس الدور الذي لعبته مدينة
هليوبوليس المصرية في قيام نظام الحكم المركزي⁽⁶¹⁾.

الخاتمة:

كثيرة هي الأمثلة التي يمكن أن تساق حول هذا الموضوع صلة الأسطورة
بالحكم، والتي تبين أن العقيدة، وأداتها الأسطورة، من أهم الظواهر الفكرية التي
أبدعها الإنسان في الشرق القديم، من أجل فرض سيطرته وحكمه على الآخرين، لأن
الفرد المتدين، مقامه لا يسمح له بأن يعارض، بأي شكل من الأشكال ظلم الحكام
والكهنة باعتبارهم يمثلون الآلهة على الأرض كما هو دورهم في بلاد الرافدين أو هم
الآلهة ذاتهم في مصر، فما عليه إلا أن يتحمل عبء ومشقة الحياة لإرضاء حكامه، ومن
ثمة الآلهة.

ولقد أدى هذا الاعتقاد دورا مهما في تحميس العمال وتقوية سواعدهم من
أجل تضحيات كبرى لبناء مساكن الحكام ومقابرهم العظمية التي ما يزال الزمن
يشهد على عظمتها، فبقدر ما كان له قدر كبير في السيطرة كان له القدر الأكبر في بناء
حضارة الشرق القديم التي كانت المصدر الملهم للعالم فيما بعد.

الهوامش :

- (1) هنري برستد، تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ترجمة زكي سوس، دار الكرنك، القاهرة 1961، ص 30.
- (2) قرأ إحدى المرات فكرة حول تعريف الأسطورة عنط القديس أوغسطين تلخص لنا صعوبة تعريف أي مصطلح يستعي على «التعريف» - ما هي الأسطورة؟ يقول " سنت أوغسطين " (إنني اعرف جيداً ما هي ، بشرط ألا يسألني أحد عنها وإذا ما سئلت و أردت الجواب فسوف يعتريني التلكؤ). لا أنذكر المرجع الذي قرأت فيه هذه الفكرة؛ وقد تعدد وجهات النظر حولها، راجع صموئيل هنري هوك، منعطف المخيلة البشرية (بحث في الأساطير)، ترجمة صبحي حديدي، دار الحوار، دمشق، 1983 ص 9-14، فراح سواح، مغامرة العقل الأولى (دراسة في الأسطورة)، دار الكلية للنشر، طبعة 2، بيروت 1981 ص 8-18، معجم العلوم الاجتماعية - الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1971، ص 30.
- (3) هنري. فرانكفورت وآخرون. ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، دار مكتبة الحياة، بغداد 1960 ص 13.
- (4) صموئيل نواح كرامر، أساطير العالم القديم، ترجمة أحمد عبد الحميد يوسف الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1974 ص 7.
- (5) محمد عبد المجيد خان، الأساطير والخرافات عند العرب، دار الحداثة طبعة 4، بيروت 1982 ص 18-19 نقلا عن: R. Smith, of Religion Sémitique
- (6) خلدون الشمعة، مدخل إلى مصطلح الأسطورة، مجلة المعرفة (سورية) العدد 197، تموز 1978، ص 7، 16.
- (7) الإشارة إلى الاعتقاد السابق حول موقع الأرض والشمس لتبيان أن معلوماتنا الحالية جاءت نتيجة لتلك الأفكار التأملية السابقة التي مهدت الطريق إلى طرح تلك الأسئلة ومحاولة فاجابة عنها لما توفرت عليها أدلة وبراهين تتناسب ومستواه الفكري.

دور الأساطير في تدعيم الحكم "بلاد الرافدينأ. عبد العزيز بن لحرش

(8) فرانس بواس، عقل الرجل البدائي، نقلا عن ليونيل روبي، فن الإقناع ترجمة محمد علي العريان، مكتبة الأنجلو - المصرية، القاهرة 1961، ص 16-17.

(9) هذا قول للفيلسوف الصيني لين يوتانج. في كتابه أهمية العيش، نقلا عن ل. روبي، المرجع السابق، ص 18.

(10) - ه. فرانكفورت، المرجع السابق ص 18.

(11) - Frankfort (H) , La Royauté et Les Dieux; Trad. J. Marty et P. Krieger, Payot, Paris, 1951 P 17.

(12) للمزيد حول هذه القضية، راجع رسالتنا تطور نظام الحكم في بلاد الرافدين غير مطبوعة، ص 51 وما بعدها.

(13) ص. كرامر السومريون، ترجمة فيصل اللوائي، دار غريب للطباعة الكويت، (د، ت) ص 45.

(14) ص. كرامر، أساطير العالم القديم ص 28.

(15) طه. باقر ملحمة جلجامش، دار الحرية للطباعة، طبعة 4، بغداد 1980.

(16) عبد العزيز بن لحرش، المرجع السابق الذكر، ص 202-205.

(17) حول أصول وطبيعة هذه المعتقدات راجع الكتاب الهام: Moret (A) et Davy (G) Des clans aux empires, coll. Evolution de l'humanité, imp. Renaissance du livre Paris 1923.

(18) ربما تم اندماج عبادة أوزيريس بعبادة إله الشمس خلال مرحلة المملكة القديمة، راجع هـ. هوك، المرجع السابق الذكر، ص 57.

(19) ه. برستد، المرجع السابق الذكر كذلك؛ كرامر، أساطير العالم القديم مرجع سبق ذكره، ص 29.

(20) هي إحدى الأساطير الثلاثة التي تعالج خلق الكون والآلهة راجع ه. هوك المرجع السابق الذكر ص 58-60.

(21) راجع حياة هذه الملكة في كتاب ونفرد هولمز، كانت ملكة على مصر، ترجمة سعد أحمد حسين، الناشر مؤسسة سجل العرب، القاهرة 1962 ص 15-61.

(22) انظر سيرج سونيرون، كهان مصر القديمة، ترجمة زينب الكردي، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1975.

(23) «كيش» إحدى المدن التاريخية القديمة في بلاد الرافدين، وفيما نزلت الملوكية للمرة الثانية بعد حادثة الطوفان كما تحكيها قوائم وسجلات الملوك، انظر: ص كرامر، السومريون ص 473.

(24) راجع حول معاني وتطور هذه الألقاب دراستنا السابقة الذكر ص 137-143.

(25) تم الاعتماد على الترجمة المقدمة من قبل طه باقر، مقدمة في ادب العراق القديم، طبع جامعة بغداد، 1976 ص 140.

(26) دلمون هي التسمية السومرية للمنطقة الواقعة في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة العربية والتي تشمل جزر البحرين وفيلكا والشاطئ المجاور لها. وقد ذكرت في النصوص الأساطير الرافدية كبلاد الآلهة ومن خلال الوصف الذي ورد في إحدى الأساطير بعنوان: «أنكي ونيخورساخ» وصفت على أنها جنة يسكنها الآلهة؛ فهي أرض «نقية» و«نظيفة» و«مشرقة» إنها «أرض الحياة» التي لا تعرف المرض ولا الموت؛ مقابل أرض الأموات في الغرب من بلاد الرافدين، الذي تمثله بيئة قاحلة ومحرقة وصحراوية. راجع حول هذه الأسطورة: قاسم الشواف، ديوان الأساطير: سومر وأكاد وأشور، الكتاب الأول، ط1، دار الساقى، بيروت 1996، ص 26-37.

(27) راجع عبد العزيز بن لحرش، المرجع السابق ص 163-166.

(28) ص. كرامر، السومريون ص 466-467.

(29) فاضل عبد الواحد علي، السومريون والأكديون، (ضمن كتاب العراق في التاريخ) دار الحرية، الطباعة، بغداد 1983، ص 77.

(30) فاضل عبد الواحد علي، من ألواح سومر إلى التوراة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1989، ص 299-304.

(31) - Pirenne (J), Civilisations Antiques, Ed. M.Albin, Paris 1958, p51.